

تفسير ابن كثير

يخبر تعالى أن جميع ما في السموات وما في الأرض من شيء يسبح له ويمجده ويقده ويصلي له ويوحده كقوله تعالى : { تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم } وقوله تعالى : { وهو العزيز } أي منيع الجبابرة { الحكيم } في قدره وشرعه وقوله تعالى : { هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب } يعني يهود بني النضير قاله ابن عباس ومجاهد والزهري وغير واحد : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة هادئهم وأعطاهم عهداً وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه فأحل الله بهم بأسه الذي لا مرد له وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يصد فأجلاههم النبي صلى الله عليه وسلم وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون وطنوا هم أنها ما نعتهم من بأس الله فما أغنى عنهم من الله شيئاً وجاءهم من الله ما لم يكن ببالهم وسيرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجلاههم من المدينة فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالي الشام وهي أرض المحشر والمنشر ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم فكانوا يخربون ما في بيوتهم من المنقولات التي لا يمكن أن تحمل معهم ولهذا قال تعالى : { يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار } أي تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم .

قال أبو داود : حدثنا محمد بن داود سفيان حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس والخزرج ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر : إنكم آويتم صاحبنا وإننا نقسم بالله لنقاتلنه أو لنخرجنكم أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونسبي نساءكم فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان أجمعوا لقتال النبي صلى الله عليه وسلم فلما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم لقيهم فقال : [لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريد أن تكيدوا به أنفسكم يريدون أن يقاتلوا أبناءكم وإخوانكم] فلما سمعوا ذلك من النبي تفرقوا فبلغ ذلك كفار قريش فكتب كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود : إنكم أهل الحلقة والحصون وإنكم لتقاتلن مع صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا ولا يحول بيننا وبين خدم نساءكم شيء وهو الخلاخل فلما بلغ كتابهم النبي صلى الله عليه وسلم أيقنت بنو النضير بالغدر فأرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم : اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من

أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبرا حتى نلتقي بمكان النصف وليسمعوا منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك .

فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتائب فحصرهم فقال لهم : [إنكم والله لا تؤمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه] فأبوا أن يعطوه عهدا فقاتلهم يومهم ذلك ثم غدا من الغد على بني قريظة بالكتائب وترك بني النضير ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه فانصرف عنهم وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء فجلت بنو النضير واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها وكان نخل بني النضير لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة أعطاه الله إياها وخصه بها فقال تعالى : { وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب } يقول بغير قتال فأعطى النبي صلى الله عليه وسلم أكثرها للمهاجرين قسمها بينهم وقسم منها لرجلين من الأنصار وكانا ذوي حاجة ولم يقسم من الأنصار غيرهما وبقي منها صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي في أيدي بني فاطمة ولنذكر ملخص غزوة بني النضير على وجه الاختصار وباقي المستعان . وكان سبب ذلك فيما ذكره أصحاب المغازي والسير أنه لما قتل أصحاب بئر معونة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا سبعين وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمري فلما كان في أثناء الطريق راجعا إلى المدينة قتل رجلين من بني عامر وكان معهما عهد من رسول الله A وأمان لم يعلم به عمرو فلما رجع أخبر رسول الله A فقال له رسول الله A : [لقد قتل رجلين لأدينهما] وكان بين بني النضير وبني عامر حلف وعهد فخرج رسول الله A إلى بني النضير ليستعينهم في دية ذينك الرجلين وكانت منازل بني النضير طاهر المدينة على أميال منها شرقيها .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار في كتابه السيرة : ثم خرج رسول الله A إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر الذين قتلها عمرو بن أمية الضمري للجوار الذي كان رسول الله A عقد لهما فيما حدثني يزيد بن رومان وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف فلما أتاهم رسول الله A يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله صلى الله عليه وسلم على آله وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم - فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحش بن كعب أحدهم فقال أنا لذلك فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال ورسول الله A في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي B هم فأتى رسول الله A الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعا إلى المدينة .

فلما استلبث النبي A أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلا مقبلا من المدينة فسأله عنه فقال

رأيتة داخلا المدينة فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه فأخبرهم الخبر بما كانت
يهود أرادت من الغدر به وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم ثم سار حتى نزل
بهم فتحصنوا منه في الحصون فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها فنادوه أن يا محمد
قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض وتعيبه على من يصنعه فما بال قطع النخل وتحريقها ؟ وقد
كان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبي ابن سلول ووديعة ومالك بن أبي قوقل
وسويد وداعس قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لن نسلمكم إن قوتلتم
قاتلنا معكم وإن خرجتم خرجنا معكم فتريصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا فقتل الله ﷺ في قلوبهم
الرعب فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم
إلا الحلقة ففعل فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل فكان الرجل منهم يهدم بيته عن
إيجاف بابه فيضعه على ظهر بعيه فينطلق به فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام
وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ فكانت لرسول الله ﷺ خاصة يضعها حيث يشاء فقسمها على المهاجرين
الأولين دون الأنصار إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة - سماك بن خرشة - ذكرا فقرا فأعطاهما
رسول الله ﷺ قال : ولم يسلم من بني النضير إلا رجلا : يامين بن عمرو بن كعب عم عمرو بن
جحاش وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاها .

قال ابن إسحاق : وقد حدثني بعض آل يامين أن رسول الله ﷺ قال ليامين : [ألم تر ما لقيت
من ابن عمك وما هم به من شأني] فجعل يامين بن عمرو لرجل جعلا على أن يقتل عمرو بن جحاش
فقتله فيما يزعمون قال ابن إسحاق : ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها وهكذا روى
يونس بن بكير عن ابن إسحاق بنحو ما تقدم ف قوله تعالى : { هو الذي أخرج الذين كفروا من
أهل الكتاب } يعني بني النضير { من ديارهم لأول الحشر } قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي
حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن أبي سعد عن عكرمة عن ابن عباس قال : من شك في أن أرض
المحشر ههنا يعني الشام فليقرأ هذه الآية { هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من
ديارهم لأول الحشر } قال لهم رسول الله ﷺ [اخرجوا] قالوا : إلى أين ؟ قال : [إلى أرض
المحشر] وحدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة عن عوف عن الحسن قال : لما أجلى رسول
الله ﷺ بني النضير قال : [هذا أول الحشر وأنا على الأثر] ورواه ابن جرير عن بNDAR عن
ابن أبي عدي عن عوف عن الحسن به .

وقوله تعالى : { ما ظننتم أن يخرجوا } أي في مدة حصاركم لهم وقصرها وكانت ستة أيام مع
شدة حصونهم ومنعتها ولهذا قال تعالى : { ووطنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله ﷻ فأتاهم الله ﷻ من
حيث لم يحتسبوا } أي جاءهم من أمر الله ﷻ ما لم يكن لهم في بال كما قال تعالى في الآية
الأخرى : { قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله ﷻ بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم
وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون } .

وقوله تعالى : { وقذف في قلوبهم الرعب } أي الخوف والهلع والجزع وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذي نصر بالرعب مسيرة شهر صلوات الله وسلامه عليه وقوله : { يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين } قد تقدم تفسير ابن إسحاق لذلك وهو نقص ما استحسّوه من سقوطهم وأبوابهم وتحملها على الإبل وكذلك قال عروة بن الزبير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد وقال مقاتل بن حيان كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقاتلهم فإذا ظهر على درب أو دار هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال وكان اليهود إذا علوا مكانا أو غلبوا على درب أو دار نقبوا من أدبارها ثم حصنوها ودربوها يقول الله تعالى : { فاعتبروا يا أولي الأبصار } وقوله : { ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا } أي لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء وهو النفي من ديارهم وأموالهم لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبي ونحو ذلك قاله الزهري عن عروة والسدي وابن زيد لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم في الدار الدنيا مع ما أعد لهم في الدار الآخرة من العذاب في نار جهنم .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث حدثني الليث عن عقيل عن ابن شهاب قال : أخبرني عروة بن الزبير قال : ثم كانت وقعة بني النضير وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر وكان منزلهم بناحية من المدينة فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وآله حتى نزلوا على الجلاء وأن لهم ما أقلت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة وهي السلاح فأجلاهم رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الشام قال : والجلاء كتب عليهم في آي من التوراة وكانوا من سبط لم يصبهم الجلاء قبل ما سلط عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وأنزل الله فيهم { سبح الله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم } * هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وطنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار * ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار * ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب * اقطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين } وقال عكرمة : الجلاء القتل وفي رواية عنه الفناء وقال قتادة : الجلاء خروج الناس من البلد إلى البلد وقال الضحاك : أجلاهم إلى الشام وأعطى كل ثلاثة بعيرا وسقاء فهذا الجلاء .

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أحمد بن كامل القاضي حدثنا محمد بن سعيد العوفي حدثني أبي عن عمي حدثنا أبي عن جدي عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وآله قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ فأعطوه ما أراد منهم فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم وأن يخرجهم من أرضهم ومن ديارهم وأوطانهم وأن يسيرهم إلى أذرعات الشام وجعل لكل ثلاثة منهم بعيرا وسقاء والجلاء إخراجهم من أرضهم إلى أرض أخرى وروي أيضا من

حديث يعقوب بن محمد الزهري عن إبراهيم بن جعفر عن محمود بن محمد بن مسلمة عن أبيه عن جده عن محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ بعثه إلى بني النضير وأمره أن يؤجلهم في الجلاء ثلاثة أيام .

وقوله تعالى : { ولهم في الآخرة عذاب النار } أي حتم لازم لا بد لهم منه وقوله تعالى : { ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله } أي إنما فعل الله بهم ذلك وسلط عليهم رسوله وعباده المؤمنين لأنهم خالفوا الله ورسوله وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين في البشارة بمحمد ﷺ وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم ثم قال : { ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب } وقوله تعالى : { ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين } اللين نوع من التمر وهو جيد قال أبو عبيدة : وهو ما خالف العجوة والبرني من التمر وقال كثيرون من المفسرين : اللينة ألوان التمر سوى العجوة قال ابن جرير : هو جميع النخل ونقله عن مجاهد وهو البويرة أيضا وذلك أن رسول الله ﷺ لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم وإرهابا وإرعايا لقلوبهم فروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان وقتادة ومقاتل بن حيان أنهم قالوا : فبعث بنو النضير يقولون لرسول الله ﷺ إنك تنهى عن الفساد فما بالك تأمر بقطع الأشجار ؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة أي ما قطعتم من لينة وما تركتم من الأشجار فالجميع بإذنه ومشئته وقدره ورضاه وفيه نكاية بالعدو وخزي لهم وإرغام لأنوفهم . وقال مجاهد : نهى بعض المهاجرين بعضا عن قطع النخل وقالوا : إنما هي مغنم المسلمين فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه وتحليل من قطعه من الإثم وإنما قطعه وتركه بإذنه وقد روي نحو هذا مرفوعا فقال النسائي : أخبرنا الحسن بن محمد عن عفان حدثنا حفص بن غياث حدثنا حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله : { ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين } قال : يستنزلونهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل فحاك في صدورهم فقال المسلمون : قطعنا بعضا وتركنا بعضا فلنسأل رسول الله ﷺ هل لنا فيما قطعنا من أجر ؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فأنزل الله { ما قطعتم من لينة } وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده : حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا حفص عن ابن جريج عن سليمان بن موسى عن جابر وعن أبي الزبير عن جابر قال : رخص لهم في قطع النخل ثم شدد عليهم فأتوا النبي ﷺ فقالوا يا رسول الله ﷺ علينا إثم فيما قطعنا أو علينا وزر فيما تركنا فأنزل الله D { ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله } .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قطع نخل بني النضير وحرق وأخرجه صاحب الصحيح من رواية موسى بن عقبة بنحوه ولفظ البخاري من طريق عبد الرزاق عن ابن جريج عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن

عمر قال : حاربت النضير وقريظة فأجلى بني النضير وأقر قريظة ومن عليهم حتى حارب قريظة فقتل من رجالهم وسبى وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا بالنبي بني ويهود سلام بن ا عبد رهط وهم قينقاع بني كلهم المدينة يهود وأجلى وأسلموا فأمنهم A حارثة وكل يهود بالمدينة ولهما أيضا عن قتيبة عن الليث بن سعد عن نافع عن ابن عمر أن رسول ا A حرق نخل بني النضير وقطع وهي البويرة فأنزل ا D فيه { ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن ا وليخزي الفاسقين } .

وللبخاري C من رواية جويرية بن أسماء عن نافع عن ابن عمر Bهما أن رسول ا A حرق نخل بني النضير ولها يقول حسان بن ثابت B ه : .

وهان على سراة بني لؤي حريق بالبويرة مستطير .

فأجابه أبو سفيان بن الحارث يقول : .

أدام ا ذلك من صنيع وحرق في نواحيها السعير .

ستعلم أيننا منها بنزه وتعلم أي أرضينا نضير .

وكذا رواه البخاري ولم يذكره ابن إسحاق وقال محمد بن إسحاق وقال كعب بن مالك يذكر إجلاء بني النضير وقتل ابن الأشرف : .

لقد خزيت بغدرتها الحبور كذاك الدهر ذو صرف يدور .

وذلك أنهم كفروا برب عظيم أمره أمر كبير .

وقد أوتوا معا فهما وعلما وجاءهمو من ا النذير .

نذير صادق أدى كتابا وآيات مبينة تنير .

فقالوا ما أتيت بأمر صدق وأنت بمنكر منا جدير .

فقال بلى لقد أديت حقا يصدقني به الفهم الخبير .

فمن يتبعه يهد لكل رشد ومن يكفر به يجر الكفور .

فلما أشربوا غدرا وكفرا وجد بهم عن الحق النفور .

أرى ا النبي برأي صدق وكان ا يحكم لا يجور .

فأيده وسلطه عليهم وكان نصيره نعم النصير .

فغودر منهمو كعب صريعا فذلت بعد مصرعه النضير .

على الكفين ثم وقد علتة بأيدينا مشهرة ذكور .

بأمر محمد إذ دس ليلا إلى كعب أخا كعب يسير .

فما كره فأنزله بمكر ومحمود أخو ثقة جسور .

فتلك بنو النضير بدار سوء أبادهمو بما اجترموا المبير .

غداة أتاهمو في الزحف رهوا رسول ا وهو بهم بصير .

وغسان الحماة موازروه على الأعداء وهو لهم وزير .

فقال السلم ويحكمو فصدوا وخالف أمرهم كذب وزور .

فذاقوا غب أمرهمو وبالا لكل ثلاثة منهم بغير .

وأجلوا عامدين لقينقاع وغودر منهمو نخل ودور .

قال : وكان مما قيل من الأشعار في بني النضير قول ابن القيم العبسي ويقال : قالها قيس بن بحر بن طريف قال ابن هشام الأشجعي : .

أهلي فداء لامرء غير هالك أجلى اليهود بالحسى المزرم .

يقلون في جمر العضاء وبدلوا أهضب عودا بالودي المكمم .

فإن يك ظني صادقا بمحمد يروا خيله بين الصلا ويرمرم .

يؤم بها عمرو بن بهثة إنهم عدو وما حي صديق كمجرم .

عليهن أبطال مساعير في الوغى يهزون أطراف الوشيح المقوم .

وكل رقيق الشفرتين مهند تورث من أزمان عاد وجرهم .

فمن مبلغ عني قريشا رسالة فهل بعدهم في المجد من متكرم .

بأن أخاكم فاعلمن محمدا تلبد الندى بين الحجون وزمزم .

فدينوا له بالحق تحسم أموركم وتسموا من الدنيا إلى كل معظم .

نبي تلاقته من الله رحمة ولا تسألوه أمر غيب مرجم .

فقد كان في بدر لعمرى عبرة لكم يا قريش والقلب الملمم .

غداة أتى في الخرجية عامدا إليكم مطيعا للعظيم المكرم .

معانا بروح القدس ينكي عدوه رسولا من الرحمن حقا بمعلم .

رسولا من الرحمن يتلو كتابه فلما أنار الحق لم يتلعثم .

أرى أمره يزداد في كل موطن علوا لأمر حمه الله محكم .

وقد أورد ابن إسحاق C ههنا أشعارا كثيرة فيها آداب ومواعظ وحكم وتفاصيل للقصة تركنا

باقيها اختصارا واكتفاء بما ذكرناه والله الحمد والمنة قال ابن إسحاق : كانت وقعة بني

النضير بعد وقعة أحد وبعد بئر معونة وحكى البخاري عن الزهري عن عروة أنه قال : كانت

وقعة بني النضير بعد بدر بستة أشهر